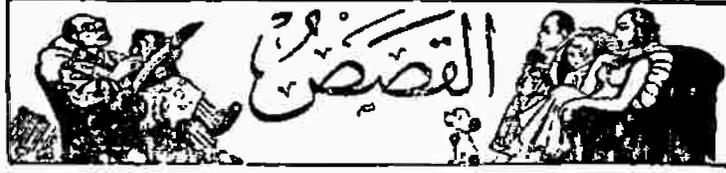


إلى صحراء مقفرة ، لا بهجة فيها ولا رواء  
ومن يدري ؟ ربما كان الشيخ قد رأى في تنليه على  
عوائق السن ودواحي الوفاة ، أطيبت نحيبها لزجها للمعاطفة  
الأنيمة التي قاضت من قلب « جميلة » قبل نصف قرن



## جميلة تحت ظلال الأرز

JAMILÉ SOUS LE CÈDRES

منحصر عن قصة طويبة لهنري بورودو

بقلم الأستاذ حلمي مراد

لم يكن يدور بخلدني ، يوم أن رست بي الباخرة (لوتس) في ميناء بيروت ، أن الأقدار قد هيأت لي أن أعود من زيارتي للبنان بوقائع هذه الفاجعة : فاجعة قلبين فرقت بينهما شريعة الدين ، فجمعت بينهما شريعة الحب . وما كنت لأقص خبرها لو لم أسمه بأذني من فم الرجل الذي كان شاهداً ، بل كان واحداً من أبطالها ، قبل أن يكون راويها

كنت قد عرفت « خليل خوري » في إحدى قرى لبنان ؛ كان شيخاً مارونياً في نحو السبعين من عمره ، طويل القامة ، وسيم القسام ، مهيباً في عيانه الحمراء وعقاله الأسود العريض . وكنت قد قضيت اليوم ممة في التجوال فوق قمم الجبال التي تكسوها الثلوج ، حتى آأن لنا أن نستريح ، جلستنا عند حافة غابة الأرز العميق ، نشرف من عل على الوادي السحيق ، حيث يفتق نهر « قاديشا » من بين الصخور التي اسطيفت بلون الأرجوان ، ويتساب بين المراعي والقرى وغابات البرتقال

وهناك تحت ظل أرزة ساحقة ؛ باح لي الشيخ الحزين يسره الذي أقفل عليه قلبه طوال خمسين عاماً كاملة . باح لي به تحت تأثير إلحاحي الشديد ، وبحت وقر الكتابان الطويل الذي كثيراً ما يرهق الماشق كما يرهق المجرم الأنيمة

قد يبدو غريباً أن ترد قصة غرام جارف على لسان عجوز في السبعين ، ولكن عزاءه كان أن الاستمراق في الذكري قد أعاد له - ولو إلى حين - انفعالات الشباب ، فوجد في قلبه ، مرة أخرى ، عاطفة الأيام الطوالي . المعاطفة التي أحالت واحدة حياته

من الزمان

\*\*\*

كان ذلك حوالي عام ١٨٧٠ ، في قرية « بشرى » المهاجرة في أحضان الجبل على عتبة غابة الأرز ، ولم يكن مضي غير أعوام منذ فقد خليل خوري أباه في مذبح « دير القمر » وهي إحدى الذابح البشعة العديدة التي خضبت في القرن الماضي جبال لبنان بدماء بنيه من المسلمين والمارونيين . فلما دم اليتم التلام ، وهو ما يزال في الثامنة ، تلقفه بالمطف والحذب أكثر من قلب ، وخاصة من أفراد أسرة الشيخ راشد والد جيرانه الأطفال : بطرس وجميلة ومُتسى ، ومن ثم وجد التلام في ثلاثهم إخوة يبادلونه ألعابهم وبصطحبرونه معهم كلما خرجوا على ظهور الخيل للصيد بين الجبال

صرت أعوام ، وبلغ الفتى عامه الخامس عشر ، فإذا ببطرس يفاجئه يوماً بالقول في لهجته القوية الآمرة : « إن جميلة سوف تنفد زوجتك يا خليل » ... وكان هذه الكلمات قد أثارته في الفتى فتوته فسبقت مشاعره سنه ، وإذا به يحس من يبعاً مسكراً من الأحاسيس والأخيلة ، ثم إذا بالخيال يوشك أن يصبح حقيقة ، حين يدرك خليل من حركات وهمسات أفراد الأسترين أن زواجه من جميلة أنحى رأساً مفروغاً منه ... ولم لا ؟ أليست جميلة كأخته ؟ إذن فالتطور لن يصل إلى حد الطفرة ، لن يبدو أن يكون خطوة قصيرة واستكمالاً طبيعياً لمودتهما المذبة ، المودة التي وقفت سلتها عندها طويلاً ... إلى أن وقع حادث تافه بدّلها في قلب خليل إلى حب جارٍ ...

... وإنه ليزكر ذلك الحادث كأنه قد حدث بالأمس ... كان خليل عانداً مع بطرس وجميلة - عصر أحد أيام الشتاء - من قرية ( حصرون ) القريبة ، حيث كانوا يتناعون بمضغمار القراسيا والشمس الجفجف . وإنهم لن الطريق النائن تحت الثلوج ، وإذا ببطرس قد أبعد في سيره طلباً للصيد

إلى الشرفة كل صباح كي يطمئن ... لسكن الشتاء كان قاسياً  
فطال بقاء الثلوج

وفي ذات صباح جميل ، رأى خليل يمدو كالطفل إلى بيت  
جميلة وهو يقول : « جميلة ! ... جميلة ! لقد ذابت آخر قطعة من  
الثلج ... لم يعد هناك ثلوج » وأسرعاً تبعاً إلى الأب ، فقال لها  
بصوت أغاظهما رزائته : « ستزوجان ... بمد أن ينفض عيد  
الأرز »

... وجاء يوم العيد . وأقبلت على غابة الأرز جوع الميدين ،  
من قرية بشرى وسائر القرى المتناثرة كالمفقود على جانبي النهر ...  
ثلاثة آلاف نسمة أقبلوا لقضاء يومهم في الهواء الطلق تحت  
ظلال الأشجار العتيقة ، يستمعون إلى الطفوس الدينية ،  
ويتناولون طعامهم على العشب ، ويرقصون ( الدبكة ) ، رقصهم  
الوطنية الجميلة ... حتى يغيب النهار فيمجدون إلى بيوتهم  
مع السماء

« وجلس أفراد الأسرتين تحت أرزة وارفة الظل مدت عصوتها  
فوق رؤوسهم كأنها تباركهم وتحميهم ... جلسوا جميعاً :  
خليل وبطرس ووالده الشيخ وجميلة وأختها الصغرى منتهى ،  
ثم صديقاتهن : آيلة ونائلة وراحيل ، وقد خلعت كل واحدة  
نقابها الأبيض ونشرته على فرع من شجرة الأرز ... وكانت  
جميلة تبدو بينهم - وهي متكئة على وسادتها - كالملكة  
في بلاطها . وأحس خليل بقبضة جارفة . إنها ستفدوله وحده  
بمد أيام ... وبينما هو مستغرق في الحلم عس له بطرس بلهجة  
تنطق بالحقد ، وهو يشير أمامه : « مسلمان ! ... ما ذا أتى  
بهما ؟ ... ما ذا يريدان ؟ وتلفت خليل إلى حيث أشار قرأى -  
أعرابيين شابين يترجلان من فوق صهوة فرسهما المطهين ،  
وقد بدت ظلمتهما رائحة رقبتهما وسيمة ... بلحيتيهما  
الحدواوين ، وعيونهما السمراء التي ترسل نظرات من نار وتقدح  
بفتنة لا يمكن تجاهلها ... ووراءها تابان بحران الفرسين ، ولم  
يكن الضيفان سوى عمر بك الحسين ، وعبد الرزاق بك عثمان ،  
من أمراء عكار ، جاءا ينشدان النزهة والترويح عن النفس  
دأب الشبان على تقلب البصر في وجوه القوم ، حتى  
استقرت نظرات عمر بك على جميلة ، وثبتت عندها . لم يحس

في الغابة . وبقى خليل وجميلة ينتظران عودته ، وبينما هما يسيران  
متجاورين ، لمست يد الفتى - عفواً - يد رفيقته ... كانت باردة  
كالثلج ، فأخذها بين راحتيه بدفئها ويصيد إليها الحياة ،  
برغم أن الدم قد سريا إليها بمد حين ، فإنه قد استمرأ  
أن يبقيا برهة أطول ، حتى قالت له الفتاة ضاحكة : « دعنى »  
فلم يبالي رجاءها بل ضغط يدها أكثر ، ثم اندفع فجأة يقبل اليد  
الرخصة بلا وعي ا ظلت الفتاة ساكنة ، لم يربها هذا الانفعال  
غير المألوف ، ولكنها عادت بمد برهة تقول له في صوت خفيض :  
« هيا بنا نمود » ... وواقعا هذه المرة

وحين أبلغها بيتها ، وجدتم قد أعدوا لها نبيذاً دافئاً ،  
ولكنه كان ثملاً بغير نحر . وتغيرت نظراته إلى جميلة ، رآها بعين  
الماشق الفاحمة في ثوبها الصوفى الأبيض ، وراح بصره يتملى  
شعرها اللامع ورقبتها التي في لون العاج ، وخدها الدافق  
بمحوية مشبوبة ، وعينيها الزرقاوين كالبحر الهادئ حين يرى  
من هامة غابة الأرز في يوم صحو جميل ... ثم صوتها الذي بدا له  
كأنه لم يسمه من قبل ، حتى لقد ود لو يذوقه في منبعه : بين  
شفتيها الحراوين كالعزم ، وأسنانها البيض كالثلج . وبالاختصار  
وثب إلى ذهنه إدراك مباحث : أن طفلته قد صارت امرأة  
وعند ما وصل إلى بيته ، سأل أمه في اضطراب : « ألم تحني  
الساعة بمد يا أمي ؟ » ولم يزد . وفهمت هي مراده بفرزة الأمومة  
فضحكت وهي تقول : « كما تريد يا بني » ... وفي اليوم التالي  
سار ثملاً مع أمه إلى بيت الشيخ راشد خطبة جميلة . وبأصر  
من بطرس ، وعلى ملأ من الأسرتين ، قطف خليل من خدها  
القبلة الأولى .

\*\*\*

ثم جاء الربيع ، وأزهرت أشجار الفاكهة الفواحة الأريج ،  
ولكن بقية من الثلوج البيض المتناثرة ، كانت ما تزال ترى  
من شرفة بيت الشيخ راشد ، فسأل الفتى واحداً « متى الزواج ؟ »  
وأجاب الأب « حين تذوب الثلوج هناك » وكان معنى هذا  
القرار : الانتظار حتى أغسطس . وهكذا صار الموعد رهنًا بجمرة  
الشمس لا بجمرة قلبى الماشقين ... ومن ثم صار الفتى يسرع

الحديث : امتدح الشيخ فرس عمر ، فقال هذا : « عندي أختها وتدعى سلمي . سأحضرها لك إذا شئت » ورحل الفارسان ، وعادت الأسرتان إلى القرية

وفي أثناء الطريق سار خليل وجميلة متجاورين ، صامتين كأن عتاباً خفياً يلجم لسانيهما ، وحين جلس خليل إلى مائدة العشاء - في بيتها - وجد على مقدمه غلافاً صغيراً فضه في غفلة السيون ؛ فإذا فيه خاتم الخطبة وكل ما أهدها إليها من حلي !

تحطم قلبه بفتة ، ولكن أحداً لم يلاحظ شيئاً ، فإن القلوب لا تحدث صوتاً وهي تتحطم . ووجد في نفسه القوة على الكتمان . وفي اليوم التالي لقيها في الحديقة ، وجلسا معاً عند النافورة ، فكانت جميلة ترمقه بنظرة مشفقة ألّية ، ثم تخفض بصرها إلى ذرات الماء المتساقطة من النافورة في الحوض ... وجرى بينهما عتاب رقيق حزين كمنفسهما . سأها خليل : « إنك لم تمودى تحبينني ؟ » وكان زائغ النظرات ، ففضت من بصرها ثم أجابت بمد حين : « هو ذاك » وعبثاً حاول أن يطرد من قلبها شبح عمر ، فإنه كان قد احتله وتحصن فيه . واقترقا على أمل براود خليلاً ، بأنها ستنسى الغريب مع الأيام .

\*\*\*

لم يمض يومان حتى عاد عمر ومعه الفرس التي وعد بها أبا جميلة ، وأعجب بها الشيخ راشد فسأل صاحبها عن الثمن ، ولكن عمر أهله قائللاً له في لهجة حازمة : « سأحدد لك الثمن ... في الغد » وعبثاً ناقشه الشيخ فإنه أمر ، وإزاء إصراره وتحت ضغط الحرج والشهامة والكرم ، دعاه الشيخ إلى قبول ضيافته وقضاء الليلة تحت سقفه :.. فقبل عمر !

ما ذا حدث بعد ذلك في ضمير الليل ؟ لم يدرك أحد ... حتى أفاق خليل من نومه في الصباح مذعوراً ، على صوت بطرس يبلغ إليه النبا : إن الضيف قد فر ، وجميلة قد اختفت ... هل فرت معه طائفة ، أم خطفها ؟ من يدري !

وبعد ساعات كان بطرس و خليل مجتطين صهوة سلمي فرس عمر ، في طريقهما إلى بلدته ( هكار ) ... وراح قلب

خليل بديب الغيرة في باديء الأمر ، ولكن النظرات طالت ، فبدأ الدم يصعد إلى رأسه . إن الغريب قد اجترأ على فتانه .. أليست هذه إهانة للمارونيين جميعاً ؟ وأخذ الاهتياج يمزجه ، ولكنه كتفه وعاد ينظر إلى جميلة . كانت قد اضطجعت على وسادة ناعمة ، في وضع أظهر فتنها صارخة ، وكان شعرها يحتمض ككتفها ، وشعاع من الشمس قد انساب من بين الفصوص فوق على خديها وطلاها بلون الذهب أو الحنطة . ترى هل تم هيئتها عن احتقارها لجرأة الغريب ؟ ولكنها تنظر إليه بدورها طائفة ، وعيونهما تتقابل . وأحس خليل أن عاصفة تجتاح نفسها وتمكر البحر الصافي في عينيها ، حتى لتبدو عليها سمة الفتاة حين تسل كيانها لانفعال حاد ، وخيل إليه أن عاطفتها الناعمة من نحوه قد تبددت ، جرفتها العاصفة العاتية التي أمارتها في أعماقها نظرات عمر . ومن ثم أحس الفتى بحلمه يتبدد رويداً رويداً ، ويحلقه نجيف ، فود لو يستغيث ، لكنه لم يجيد صوته . إن نظراتهما ما تزال متقابلة في غير مبالاة بالجموع الغفيرة التي شغلها الطعام أو شغلها النغلة والنباه عن التنبيه لما يجري . وأخيراً أفاق الماشق المذنب من غمرة أفكاره على صوت بطرس يسأله وهو بهز كتفه مراراً : « ما بالك يا خليل ؟ » فأجابه دون وعي : « إنها تنظر إلى الغريب » ونحك بطرس في سخرية ، واحمرت وجنتا الفتاة ، لأنها لا شك سمعته !

\*\*\*

فرغ القوم من الطعام وبدأت رقصة ( الديكة ) بعد حين ، فرقص بطرس مع الجموع ، ثم نهضت جميلة ، فأخلى الكل الحلقة لها ووقفوا حولها يتفرجون في شغف ، وراحت هي ترقص وحدها في خفة الطير ، وكأنها من فرط رشاققتها لا تلمس الأرض . كان ذراعاها البضتان تدوران في الهواء ، واتخذت بشرتها لون أحجار (بمليك) حين يقرب عليها النهار . وفي كلمة ، كانت كآلهة الشياطين والجبال والحب ، ثم فرغت من رقصتها بعد حين ؛ وتقدم خليل ليهنئها ؛ فإذا بها منشغلة عنه بتلقى نظرات الأعرابي الجميل . واقترب والدها يرحب بالضيف ، وطال بينهما

الماشق المدنف يتاجى طيف محبوبته « جميلة ! ... أين أنت الآن ؟ ترى هل يقع بصري عليك بعد اليوم ، فأرى عينيك في لون البحر الهادي تحت أعتاب الجبل ، وأرى خديك الناضرين وورقتك التي في لون العاج ، وذراعيك ، وشعرك ... شعرك الجليل ... إن الطل لا بد قد بلله ليلة أمس ، وأنت تحيطين بدن عمر بذراعيك فوق سهوة الفرس وهي تمدو بكما مناسبة بين الجبال في الظلام ... جميلة ! جميلة ! إنني آث في ظل إعمك أتبعك ... ألا تسميني يا جميلة ؟ » لكنها لم تسمع ، فإن أسوار قصر عمر في ( عكار ) كانت غليظة وعالية !

وبعد أيام خرجت عكار عن بكرة أبيها إلى الطرقات ، وازيفت ، كي تحتفل بزفاف المارونية التي أسلمت ، وكى تراها وهي تمبر شوارع البلدة في هودجها الفاخر يتهادى بها . وبينما كان الركب يخترق أحد الشوارع كان خليل وبترس واقفين يستمرضانه في صمت وغيظ . وحين صر بهما الهودج وجميلة في داخله تبتسم جذلة ، امتدت يد بترس إلى غدائه ، وهم بإطلاقها ، لولا أن أقمته خليل - والدموع في عينيه - بأن يترتب فإنه يريد لها حية ؟ وارتدت يد الأخ القاضب لشرفه . ومر الركب بسلام . ومضى التمسان مبتسحين ، والحفق يجفف حلقهما ويضن عليهما بالبكاء .

وحين بلغ الوكب القصر ، وضم عمر عروسه إلى صدره ، كانت ظلال خليل وبترس قد اختلطت بالظلام الذي يرين على الطريق ، حتى إذا كان الند ، عادا أدراجهما إلى قريتهما

ومضت أيام وأسابيع وشهور ، والغضب للشرف ما يزال يتأجج في صدرهما وفي صدر الأب الحزين ( الشيخ راشد ) فإنهم جميعاً لم يكونوا قد طلقوا عنهم على استعادة جميلة بأي تمن !

وبعد سبعة شهور من الزفاف ، وفي أوائل الربيع ، عاد خليل وبترس ينحدران بين غابات الصنوبر والأرز ، في طريقهما إلى ( طرابلس ) ، فقد أتاهما النبأ أن جميلة وعمر قد انتقلا إلى قصر آخر له هناك

ولم يطل بمحهما عن ضالتهما ، فقد اهتديا سريعاً إلى القصر البياض ، حيث تعيش العاصية ، كآفة بشريمة العشيعة ، مؤمنة بشريمة الهوى

وبعد أيام - ومن نفس الطريق - عاد الشابان بصمدان الجبل إلى قريتهما ومعهما في هذه المرة ... جميلة ؛ فقد وقفا إلى اختطافها أخيراً

وفي ( بشرى ) انمقد مجلس الأسرة لمحاكتها ، واعترفت التمسة بكل شيء : اعترفت بأنها قد قرت من كنف أسرتها مختارة ، وطلقت دينها مختارة ، وتزوجت من عدو عشيرتها ... مختارة أيضاً

وصدر حكم الأسرة عليها بالإعدام . ووكل أمر التنفيذ إلى أخيها بترس .

كم بكى خليل ، حين انفرد بالعاصية بمد صدور الحكم ، وهم أجهد أعصابه وهو يفتنهما عن حبها لمر ، محاولاً إقناعها بأن تشتري حياتها بالزواج منه هو ... لكنها أبت في إصرار ، وزاحت تتطلع إلى بعيد وقد رقت نظراتها وبدت كالحالمة وهي تقول بصوت حنون : « إنني أترجي ، فأنت لا تعرف حبيبي » ودق الباب ، ودخل بترس - جلادها - فبكى خليل ، وإذا بها ترمقه بنظرة أوهنها الإشفاق ، ثم تقول وهي تضع يديها على كتفيه : « كن شجاعاً يا خليل ... فلست بخائفة ... وهل يعرف الخوف من يعرف الحب ؟ »

ثم ذهبوا بها وقد انتزعوها منه بعد أن أوصدوا عليه للباب وحين تمكن من اقتحامه ، بعد لأي ، مضى كالمجنون ، يمدو باحثاً عنها ... حتى وجدها تحت شجرة أرز ... مذبوحة ! ولم تمض أيام حتى لحق بها زوجها عمر . قتل نفسه على قبرها ، بعد أن أوصى بأن يدفن معها في نفس المقبرة ... المقبرة التي ما تزال قائمة حتى اليوم خارج بلدة طرابلس ، والتي ما تزال تظهر على أحجارها أحرف محفورة بخط عربي جميل ... أحرف اسمي : عمر وجميلة .

علمي مراد  
المعلمي